

مساجد القاهرة ومدارسها

« المدخل »

تأليف الأستاذ الدكتور احمد فكرى

معرض تعريف للدكتور سعد زغلول عبد الحى

استقبلت المكتبة العربية الحديثة منذ شهور قليلة كتاباً كانت في أشد الحاجة إليه ، ذلك هو المجلد الأول من كتاب الأستاذ الدكتور أحمد فكرى ، أستاذ الحضارة الإسلامية بجامعة الاسكندرية ، عن مساجد القاهرة ومدارسها . والحقيقة أن الكتب الخاصة بالآثار العربية نادرة أو غير موجودة في المكتبة العربية القديمة ، وما كتب عن الآثار عبارة عن قطع متناثرة في المصادر التاريخية وغيرها . أما الدراسات العربية الحديثة في آثارنا العربية فما زالت في دور النشأة ، ولم تأخذ بنصيبها الذى نتمناه لها بعد . وهنا نحب أن نذكر أن الدكتور فكرى يعتبر من أوائل الذين اهتموا بالآثار العربية ، ومن المنشئين لهذه الدراسة . وتكفى بالإشارة الى كتابه عن « مسجد القيروان الجامع » الذى نشر في القاهرة سنة ١٩٣٦ . هذا في الوقت الذى اهتم فيه الأوروبيون والمستشرقون منهم بدراسة الآثار العربية الإسلامية منذ أكثر من قرنين .

والكتاب حسب المشروع الذى رسمه الدكتور فكرى سيكون موسوعة فكرى في الآثار والعمارة العربية في القاهرة - أسيوط - مصر . والآثار هي العنصر المادى الملموس الذى يحسم الحضارة العربية . والمجلد الأول الذى تقدمه هو « المدخل » لهذه الموسوعة ، وهدفه التمهيد لدراسة الآثار العربية في مصر والعالم العربى ، والتعريف بخصائص العمارة العربية الإسلامية تعريفاً يبرز مميزات الأصلية ، وسماها الحقيقية النابعة من أرض العرب ، ومن مجتمع

العرب ، ومن نفسية العرب ، ومن التقاليد والعادات العربية العريقة .
وذلك على عكس ما يدعيه بعض المشتغلين بالآثار العربية من المستشرقين
— عن غرض أو عن حسن نية — ، أو الذين انساقوا وراء دراماتهم
البراقة دون أن يعرفوا إلى أين هم سائرون .

ولقد قسم الدكتور فكرى « المدخل » الى ثلاثة أبواب تنقسم الى فصول
عشرة :

والفصل الأول من الباب الأول عرض للدراسات الآثار العربية التي قام
بها المستشرقون باللغات الأوروبية المختلفة . وهذا الباب له أهميته الكبيرة
في دراسة المصادر والتعريف بها . وأهم ما فيه نقد بحوث المستشرقين ،
والتنبيه الى ما حوته من أخطاء أو تحريفات : كالأخطاء الناتجة عن الجهل
باللغة العربية ، وعدم ادراك أصول الشريعة الاسلامية ، والتحيز الذي يهدف
الى افكار أفضال العرب ، والاستناد الى الأخبار التي لم تثبت صحتها .
وضرب الدكتور فكرى الأمثلة العديدة على هذه الانحيازات المفرضة عند
« كرسويل » و« جورج مارسبه » و« ديولا فوا » ، وبين هدفهم الرأى
الى اثبات أن تخطيط المسجد مأخوذ من تخطيط الكنيسة ، وأن المبانى
الاسلامية منقولة عن المبانى القديمة . كما أن بعضهم يهمل فكرة وحدة التعبير
الفنى العربية بالبحث عن الأصول والعناصر المختلفة فقط (ص ١٩) .

وفي الفصل الثانى فلسف الدكتور فكرى دراسة الآثار فى نظريات
أربعة :

١ — نظرية الأصول والمصادر : ويبنى أن يراعى فيها أن الفنون
لم تكن مجهولة فى بلاد العرب قبل الاسلام ، وان الشكل الخارجى غير مهم
فالعبارة بالجوهري والوظيفة ، وأن تراعى الصلة التاريخية على أسس سليمة .

٢ — نظرية الاستنباط : ومجملها أن العمارة ليست محاورات لحل
مسائل هندسية ، أو تجسيم لتعبيرات وإيماءات ، وانكنا ترتبط بأسباب

الحياة وأغراضها ، وظروفها المختلفة : بمعنى أنها تخضع لحاجات الانسان تبعاً لظروفه المادية . وترتبط بعملية الاستنباط هذه عمليتان ، هما : الاشتقاق والاقتباس .

٣ - نظرية التطور : وهي حلقة من حلقات الاقتباس والاستنباط فالأشياء المقتبسة لم تستقر في الفن الاسلامي على حالها ، بل تبعت قانون النمو والتطور حتى كونت مجموعة جديدة من الأساليب الزخرفية والعناصر المعمارية وهي التي حددت خصائص الفن العربي .

٤ - نظرية الوحدة العربية : فالفن العربي من الخليج الى المحيط يكون وحدة رغم شدة تنوعه في الزخارف الهندسية والكتابة الزخرفية . فهذا التنوع أشبه باختلاف اللهجات بالنسبة للغة البلاد العظمى - اللغة العربية . وهذا يعني ضرورة أن تشمل تسميته صفة العروبة : فهو الفن العربي قبل أن يكون الفن الاسلامي . فالفضل للعرب في انتشاره ، اذ ينفرد العربي بخياله الهندسي الذي ينصب على الكتلة فيقسمها ويجزؤها ويحولها الى خطوط ومنحنيات تتكرر ، وتتعاقد وتتبادل ، وتمتد الى مالا نهاية ، حتى لا يكاد الناظر اليها يحدد بدايتها أو نهايتها (ص ٤٥) .

والخلاصة أن الفن الاسلامي نشأ نتيجة لدخول العرب في الاسلام . واستخدمهم كل ملكاتهم العقلية والحيازية والشعورية في خدمة هذا الدين .

ودرس الدكتور فكري في الباب الثاني في الفصل الرابع عواصم مصر قبل انشاء القاهرة من القباط الى العسكر والتمطع . والفكرة الرئيسية هنا هي أن المصريين فصموا وروابطهم بالماضي من حيث اللغة والدين والتقاليد ، وكذلك من حيث روابط الفنون التي اتخذت الطابع العربي . ويتبع ذلك بدراسة مسجد عمرو ، أقدم نماذج العمارة الاسلامية في مصر : تاريخه ، والآثار المختلفة منه ، وزخرفته ، وتخطيطه . ويقدم الدكتور فكري مشروع كرسويل لرسم تخطيط المسجد ، ويبين كيف أنه تصرف في النصوص فأولها تأويلاً لا يتفق مع حقيقتها . وينتهي هذا الفصل بمشروع تخطيط له

استخدم فيه روايات المؤرخين كما استعان بنتائج الدراسات الأثرية .
والفصل الخامس دراسة مشابهة خاصة بالمسجد الطولوني ، تناولت تاريخه
الذي يدل على أنه احتفظ بمعظم عناصره القديمة ، وتخطيطه المربع ،
وعمارته ذات الدعامات والعقود التي سمحت بارتفاع الحقف الى عشرة أمتار ،
ومثنته ذات السلم الملتف حولها من الخارج . وعناصره المعيارية وأهمها الدعامة
والعمد المدب وهما أول مثل معروف من نوعهما (ص ١١٩) ، وعناصره
الزخرفية في اطارات الدعامات وتيجانها ، وتيجان الطاقات والنوافذ ،
والأزارات التي تعلو رؤوس العقود .

والعناصر الزخرفية تتميز بأسلوبها المبتكر ، وأشكالها الهندسية ،
وخاصية الخيال ، وخاصية التكرار ، وخاصية كراهية الفراغ ، وكثرة
استخدام الحذف الكوني في الزخرفة . وهذه كلها نبتت من بيئة الأعراب ،
ونزوة خيالهم ، وتأثرت بعقيدتهم الدينية ولغتهم (ص ١٣١) .

وتناول الباب الثالث تخطيط المساجد السابقة على إنشاء القاهرة .
والفصل السادس منه مخصص للمسجد النبوي بالمدينة ، أول مسجد أقيم
في الاسلام . ويوضح الدكتور فكري التشابه بين تخطيطه وتخطيط جامعي
عمرو وابن طولون ، ويقدر رسم كرسويل التخطيطي ، ورسم بوتق Pauty ،
كما يبين أخطاء محمود عكوش ، ومجهودات سرفاجيه وأخطائه . وأخيرا
يقدم رسمه التخطيطي للمسجد . ويتناول الفصل السابع المساجد الجامعة الأولى
في البصرة والكوفة ، كما يتناول مساجد العصر الأموي في القيروان والشام
والعراق كالمسجد الأقصى ، ومسجد واسط ، والجامع الأموي بدمشق ،
ومساجد بادية الشام ومنها مسجد بصرى ، ومسجد حران الذي عجز كرسويل
عن رسم تخطيط له فرسمه الدكتور فكري (ص ٢٢٦) . ويحتوي الفصل
الثامن على دراسة لمساجد القرنين الثاني والثالث للهجرة ، في المشرق العربي
مثل مسجد المنصور ببغداد ، ومسجد الأخضر ، ومسجد الرقة ، ومسجد
سامرا ، ومسجد أبي دلف ، وفي الأندلس مثل مسجد قرطبة ، وفي
المغرب مثل مسجد سوسة ومسجد رباطها ، ومسجد إوفاته ، ومسجد

الزيتونة . ولقد رسم الدكتور فكرى رسوماً تخطيطية دقيقة لهذه المساجد ،
مبذبة على دراسة المصادر التاريخية ، وعلى نتائج الأعمال الأثرية التي قام بها
بنفسه في البلاد التونسية .

وبلخص الدكتور فكرى نتائج دراسته في الفصلين الآخرين ، ففي
الذامع منهما يفند آراء المستشرقين التي تهدف الى إثبات أن الجامع منقول
عن المعابد الفرعونية أو قاعات الاستقبال العامة الرومانية أو القصور الفارسية
أو الكنائس أو حتى المعابد اليهودية - كما سمح خيال بعضهم (ص ٢٨٨) .
وبين أن تخطيط المسجد نابع من طريقة الصلاة الإسلامية ، وهذا موضوع
الباب العاشر والأخير : فتحدد اتجاه القبلة وتخطيط جدار القبلة هما العنصر
الأول في تخطيط المسجد . وهذا ابتكار جديد من غير شك في فن العمارة .
فجدار القبلة هو المركز الذي تتشعب منه عناصر التخطيط . وهذا يعني
خطاً فكرة المستشرقين القائلة ان محور تخطيط المسجد هو الخط الممتد من
المحراب الى النقطة التي تتوسط الجدار المقابل له كما في الكنيسة (ص ٣٠٠) .
ويخضع بيت الصلاة لنظام رفع الظلة عليه ، ويتسع أو يضيق حسب الارتفاع ؛
وعلى ذلك فليست هناك نسبة بين طول جدار القبلة وعمق بيت الصلاة .
أما حكمة اتساع اسكوب المحراب فلكنى يتضمن أكبر عدد من المصلين
في الصفوف الأولى ، وللصف الأول فضل كبير في الصلاة ، ثم لأنه مكان
المحراب والمنبر والمقصورة ، وهي عناصر هامة في المسجد اقتضت زيادة
اتساع هذا الاسكوب . وأخيراً يلخص الدكتور فكرى آراء أولئك الذين
يقسمون المساجد الى ثلاثة أنواع : عراقية ، وسورية ، ومغربية أندلسية ،
ويبين وحدة الفن العربي (ص ٣١٢) . ويثبت أن تخطيط المسجد الجامع
نظام أصيل في تاريخ العمارة ، وأنه استحدث في السنة الأولى للهجرة عندما
بنى الرسول مسجده (ص ٣١٦) .

هذا عرض سريع لبعض ما يحويه مدخل مساجد القاهرة ومدارسها ،
وهو كتاب لاغنى للمشتغلين بتاريخ الاسلام ، والحضارة العربية ، وطلابها

والمهتمين بها ، عن الاستفادة منه . ولا يسعنا الا أن نهنئ الأستاذ الدكتور
فكري على هذه الدراسة التي تدل على سعة العلم وكثرة الاطلاع ، وتتميز
بتمعن الفكر ودقة الملاحظة . وأملنا أن ينهتئ - وهو يعمل جاهداً - من
إخراج بقية أجزاء موسوعته في القريب العاجل - إن شاء الله .